مقاومة بيئية في شعر محمود درويش

ECO RESISTANCE IN THE POETRY OF MAHMOUD DARWISH

د. ضياء الرحمن *

ABSTRACT:

Eco criticism is a new and growing field and quite a recent phenomenon in the world of literature. This study stamps to analyses three poems of the Arab poet Mahmoud Darwish using selected concepts from eco-criticism as a way of opening up this field to Arab world academics. The premise of the research was impelled by the generally agreed view that every society and culture has their own way of interacting with nature, which in turn can illustrate a culture's worldviews, norms and values. It can also provide insights as to how nature has been used by certain poets to further their agendas. This paper mainly dwells on selected poems that have natural objects as their main focus and which show how Darwish utilized nature as a form of resistance to colonialism. Such poems of Darwish could be used to illustrate how eco-criticism might contribute to an understanding of Arab resistance during the colonialist period. The research shows that the Arab poet, Mahmoud Darwish had a special way of educating Arab people to resist through "green" poems that were engineered on natural environment.

KEYWORDS: Eco-Criticism, Nature, Poetry Resistance, Mahmoud Darwish

الكلمات المفتاحية: مقاومة بيئية ، الطبيعة، شعر, محمود درويش

الملخص

في إطار الوعي المتنامي بقضايا البيئة، نشأ حديثا اتجاه جديد يطلق عليه النقد البيئ في عالم الأدب والفن وترعرع في محيط الأدب العربي بعد تعاظم نفوذه في الولايات المتحدة وبريطانيا وأفريقيا والهند. فتح هذا الاتجاه النقدي أفقا جديدا من الحوار في أواسط أكاديمية من العالم العربي بمن فيهم الشاعر العربي

* مدرس ضيف، مركز دراسات غرب آسيا، كلية الدراسات الدولية، جامعة جواهر لعل نهرو، نيو دلهي

محمود درويش وأثر في تكوينه الفني والفكري كما نجده خاصة في قصائده "عاشق من فلسطين" (١٩٦٦)،" يوميات جرح فلسطيني" (١٩٧١) والمزامير (١٩٨٢). هذه الدراسة عبارة عما يتفق على أن كل مجتمع وثقافة لديه طريقة خاصة للتفاعل مع الطبيعة والتي بدورها يمكن أن تضيء وجهات النظر العالمية عن الثقافة ومبادئها وقيمها. كيف استخدم محمود درويش مظاهر الطبيعة في شعره من أجل تعزيز أجندته؟ وكيف إنه قاوم عدوه بقلمه وقصائده من خلال الأشجار والجبال والتلال والصخور والطيور وغيرها من الطبيعة الأخرى؟ وكيف يمكن أن يسهم النقد الإيكولوجي في مجال إدراك خطورة المقاومة العربية خلال فترة الاستعمار؟ كل ذلك يتمحور حول هذه الدراسة الشاملة.

كلمات مفتاحية: النقد البيئ، الطبيعة، الشعر، المقاومة، محمود درويش.

مقدمة

النقد البيئي هو ظاهرة حديثة في الإطار الأدبي و يعود إلى مقال بقلم ويليام روكيرت في عام ١٩٧٨م على الأقل. وهو بعنوان "الأدب وعلم البيئة: تجربة في النقد البيئي". يجادل ويليام روكيرت في مقاله بأن المشروع الإيكولوجي، مهما كان هو، يحدد دور الطبيعة في مجال إثراء الشعر بالصور والرموز والإيحاءات و يعتني بكيفية استخدام مبادئ إيكولوجية كنموذج للتفكير في العمل الأدبي. على الرغم من ذلك، ظل النقد البيئ غير فعال في مفردات النقد حتى تم عقد اجتماع رابطة الأدب العربي في أميركا عام ١٩٨٩ حيث سلط تشيرليي غلوتفيلي وغلين ألوف الصوء على مصطلح النقد البيئ مؤكدين على ضرورة تطوير أبعاد النقد ذات التوجه البيئ. من هذا المنطلق، ظهر النقد البيئ كمجال أدبي جديد في أواخر سنوات السبعين من القرن العشرين وبدأ يتعاظم نفوذه في أمريكا الشمالية وبالضبط في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وذلك ضمن مؤسساتهما الأكاديمة ومعاهدهما الجامعية كجامعة "أريغون".

على مدى العقود الثلاثة الماضية، بدا النقد البيئ على سطح الأرض كنظرية أدبية تدرس حركة التفاعلات بين الإنسان والطبيعة أو البيئة في النص الأدبي وتجاوز حدود أمريكا وبريطانيا للوصول إلى أفريقيا والهند. وفقا لميوانغي، قلما يوجد النقد البيئ في المجمع الأكاديمي مع أن التعبير مثل "صراع الرجل مع البيئة" تسمعه أذاننا في أغلب الأحيان في مقالات أدبية. وأما في الهند، فهناك عدد هائل مما يرافق مرحلة مابعد الحداثة والنقد البيئ بتحليل ما يعقد ترابطات نصية وخطابية بين الأدب والطبيعة والأرض والمكان.

في نصوص الأدب العربي، لايزال النقد البيئ في مراحله الأولى من النمو والتطور. نحن نأمل بإمكانية ارتقاءه إلى درجة عالية من النضج لأن معظم الأدب العربي ازدهر في محيط ريفي. من وجهة نظري، إنما تبلور خلال فترة مابعد الاستعمار يترجم عن علاقة وطيدة بين أعلام الأدب العربي ووطنهم الذي ألهمهم على مقاومة الاستعمار. من بينه ، لعب الشعر والشعراء دورا حيويا في مقاومة الاستعمار خلال الاستعمار الغربي للعالم العربي. تمثلت مثل هذه المقاومة في كثير من القصائد حيث يؤظف الشعراء ما يستمد من الطبيعة ومكوناتها أمثال الصخور والأحجار والشمس والبحر والطيور والتلال لصب جام غضبهم على الظالمين. اندفعت هذه الدراسة بمقاومة انعكست في مرآة الشعر العربي في أواخر القرن العشرين و على وجه الخصوص بشعر محمود درويش ينظر إليه أعلام الأدب بعين التقدير والاحترام البالغين واصفين إياه أبا لشعراء المقاومة العرب. وأما هدف هذه الدراسة فهو تطبيق مبدأ النقد البيئ في إطار قصائد مقاومته.

محمود درويش هو صوت المقاومة العربية و المتحدث بلسان الشعب الفلسطيني اليائس والمنفي وهو شاعر فلسطيني يرتسم شعره في أذهان الملايين من العرب حتى هتف المتظاهرون المناهضون للاحتلال كلماته على شوارع رام الله ودمشق والقاهرة. له أكثر من عشرين مجموعة شعرية تحددت موسيقاها على لسان مارسيل خليفة. من أشهرها قصيدة "أمي" يستهلها الشاعر بسطر "أحن إلى خبز أمي".

ولد محمود درويش في قرية فلسطينية "البروة" بمنطقة عكا وأصبحت جزءا من "إسرائيل" عام ١٩٤٨. على إثر ذلك، هربت عائلته إلى لبنان وعادت إلى قريتها بعد عام واحد . كسب محمود درويش سمعة عالمية كشاعر المقاومة في أوج شبابه بديوانه الأول "عصافير بلا أجنحة". من أشهر قصائده "بطاقة هوية" يستهلها الشاعر بلهجة خطابية:

"سجل! أنا عربي!

ورقم بطاقتي خمسون ألف"

وأطفالي ثمانية!

وتاسعهم... سيأتي بعد صيف!

فهل تغضب! ١

وضع محمود درويش في قفص الاتهام بقراءة قصائد تحريضية وسُجن ثلاث مرات خلال سنوات الستين. في فترة السبعينات، إنه غادر إلى القاهرة للإنضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية حيث توثقت عروته مع ياسر عرفات. في عام ١٩٨٧، كما تم انتخابه للجنة تنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية كتب تصريح الإستقلال عام ١٩٨٨ وتلاه ياسر عرفات عند إعلان دولة فلسطين. عام ١٩٩٣، إنه استقال عن منظمة التحرير الفلسطينية احتجاجا على اتفاق أوسلو واستقر في رام الله. وجه كثير من أبناء البلاد هجوما لاذعا عليه لترك وطنه إلا إنه دافع عنه بقوله إنه خدم وطنه خارج وطنه أفضل مما فعله داخل وطنه. إنه لفظ أنفاسه الأخيرة في مستشفى تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية في أغسطس عام ٢٠٠٨.

تاريخ موجز المقاومة العربية

كيف استمدت حركة المقاومة العربية أصولها؟ وكيف رسخت جذورها في عمق أرض فلسطين؟ وكيف انطلقت حركة المقاومة الأدبية على المسار الفلسطيني؟ هذا هو ما يدور حوله الباحث . يرى رجال الفن والأدب العربي أن حركة المقاومة الفلسطينية انطلقت مما شهده العالم العربي بأسره على مدار عقود القرن العشرين. يعتقد رئيس أركان القوات المسلحة الليبية ريادي منقوش بأن "توظيف ا لتاريخ المختلف يكشف عن تنافس وجهات النظر العالمية الدالة على الاشتباكات الآئيديولوجية بين الشرق والغرب" ٢. ومما لايزال يشغل بال الإنسان العربي هو استعمار فلسطين على يد إسرائيل بمساعدة الإمبراطور البريطاني عام ١٩٤٨. منذ ذلك الحين، لايزال عرب فلسطين يكافحون للتحرر من قبضة الاستعمار.

بدأ عرب فلسطين حركتين مقاومتين: مقاومة مسلحة ومقاومة أدبية. في طليعة حركات المقاومة المسلحة، حركة مقاومة لعام ١٩٣٦ يرجع إليه تاريخ المقاومة العربية لفترة تتراوح ما بين عام ١٩٤٨ و ١٩٧٣م إذ أنها ثورة مسلحة ثارت في أنحاء كثيرة من فلسطين و هي أول معركة بين الشعب العربي المقاوم والإمبراطور البريطاني بمساعدة المستعمرين اليهود. حال المستعمرون البريطانيون دون المقاومة

١ درويش، محمود، بطاقة هوية، أوراق الزيتون، ديوان الأعمال الاولى ١، ص ٨٠
٢ ريادي، منقوش، روزي سوليزا هاشم ونوراني محمد يوسف: استخدام الأسطورة التاريخية في الرواية الأمريكية والعربية الأخيرة، مجلة الدراسات اللغوية الإلكترونية، ص ٥٧-٥٨

الأولى من خلال شبكة سياسية مع القادة العرب كإطار خطة نحو إنشاء إسرائيل كدولة مستقلة في ربوع فلسطين المحتلة. من أبرز مزايا المقاومة المسلحة الأولى هو أنها حرضت العرب على مقاومة اليهود بشق الطريق إلى ظهور جيل جديد من الشعراء الملهمين في الوطن المحتل وفي الشتات.

شهد العام ١٩٤٨ حدثا تاريخيا مأساويا في تباشير التاريخ الفلسطيني عقب إنشاء إسرائيل خضع لها الجيش العربي وانخفض صوته لعدة سنوات عانى خلالها الشعب الفلسطيني من مصاعب جمة٣.

على الرغم من اضمحلال فتيل المقاومة المسلحة ، رفعت حركة المقاومة الأدبية صوتها على الظلم والاستغلال ونبضت قلوب الشعراء أمثال محمود دريش، سميح القاسم، توفيق زياد وسالم جبران وغيرهم. من بينهم ، محمود درويش يأتي في المرتبة الأولى من شعراء المقاومة. يرى الأديب المصري فيصل دراج أن المصطلح "شاعر المقاومة" له أثران. أولهما على الأرض المحتلة التي ترتقب إلى التحرير وآخرهما الآئيديولوجيا القومي الذي يحتفل بشعر الالتزام بتحرير فلسطين. ٤

حركة المقاومة في الأدب العربي

في كتابها أدب المقاومة لاحظت باربرا هارلو بأن مصطلح "المقاومة" جاء لأول مرة في سياق توصيف الأدب الفلسطيني عام ١٩٦٦في دراسة الكاتب والناقد الفلسطيني غسان كنفاني بعنوان: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة وذلك بزعم بأن أدب المقاومة يميز بين الشعب المحتل والشعب المنفي و يواكب مشوار الكفاح السياسي والعسكري والاجتماعي من أجل الحرية. يقول المؤلف في دراسته حول المقاومة الفلسطينية إن أي نوع من البحث لايأتي في إطار أدب المقاومة إلا يصبح الباحث جزءا من الحركة الجارية داخل فلسطين المحتلة٥. وهكذا، إنه اقتصر حدود دراسة المقاومة الثقافية على المواطن الفلسطيني. تفتح دراسته: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة أمامه آفاقا واسعة يطل منها على المقاومة لكنها تجاهلت عما لعبته الطبيعة في دعم معنى المقاومة للخلاص من قيود الاستعمار. في رأي الشاعرين الفلسطينبين يحي حسن و نورتيا عمر لم يكن غسان كنفاني نفسه كاتبا أو روائيا بل هو ناشط سياسي استعمل مصطلح "أدب المقاومة" في مرآة أدب المقاومة.

٣ النقاش، رجاء، محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة، ص ١٤-١٦
٤ دراج، فيصل، محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة، ص ٥٧
٥ هارلو، باربرا، أدب المقاومة ،ص ٢

منحت الطبيعة فلسطين جمالا ران على قلوب الشعراء العرب وأقلامهم وهناك بيت مشهور للشاعر على محمود طه لعله لاينطبق على بيئة طبيعة كما ينطبق على البيئة الفلسطينية. في هذا البيت يقول الشاعر:

لاتقل أخصب الثرى

فهنا أورق الحجر...٦

فالحجر في فلسطين ليس حجرا عقيما لاينبت ولاينجب بل هو حجر أخضر مثمر، تنمو فيه أشجار الزيتون والبرتقال والليمون وتورق على قمم جباله أشجار أخرى تتلألأ باللون الأخضر الساحر ويمتلئ الهواء الفلسطيني بعطر رائع يملأ القرى ويتسلل إلى المدن. كل ذلك أثر في نفس الشاعر وجعله يغوص في طيات الطبيعة من أجل تعزيز حملته. بهذا الشأن، علقت مؤلفة أميركية جيني فاناسكو في كتابها الإنجليزي بعنوان شاعر المقاومة: محمود درويش على أن "الشعر لمحمود درويش كان في المقام الأول ممارسة المقاومة. إنه يستخدم الاستعارة وصور الطبيعة وما هو مألوف للقرى الفلسطينية: القمح والثوم والبصل وبساتين الزيتون"٧.

يلاحظ الناقد الأدبي الفلسطيني فيصل دراج بأن محمود درويش قرض قصيدة في وصف الشاعر الإسباني لوركا قائلا إن كل شاعر مثالي مقاوم زلزال وإعصار كما نراه فيما يلي:

هكذا الشاعر، زلزال وإعصار مياه

ورياح، إن زأر

يهمس الشارع للشارع، قد مرت خطاه

فتطاير يا حجر!

هكذا الشاعر، موسيقي وترتيل وصلاة٨

٦ طه، على محمود، ديوانه، ص ٦
٧ فاناسكو، جيني، شاعر المقاومة: محمود درويش، أغنى جرنال، ٢٠٠٨ ص ١
٨ درويش، محمود، لوركا، أوراق الزيتون، ديوانالأعمال الأولى ١، ص ٧٥

يمضى فيصل دراج في قوله "لافرق هناك بين الأرض والشاعر لأنه أصلها وكل شيء فيه منذ إنه رسخ نفسه كأصل وحامي صادق عما يخلقه: الإنسان والأزهار والطيور والفواكه''. في جوهره، يتمتع الشاعر بعلاقة وثيقة وشخصية مع مفردات الطبيعة.

بهذا الخصوص، أستاذة مساعدة فلسطينية في قسم الثقافة العربية الحديثة والأدب بجامعة يالي (Yale) هاله خميس نصار اعتبرت محمود درويش رائدا لحركة مقاومة عربية وبطلا شعريا باسلا تجاوزت مقاومته كل حدود الزمان والمكان ولاحظت بأن درويش في أعماله المبكرة يستخدم الأرض ومناظر الطبيعة، الجندي، اللاجئ، الشهيد، آلام المنفى، دماء الجرحى، بندقية، دبابات، النار وغيرها لإدراك خطورة المقاومة المسلحة للنضال الفلسطيني المستمر. في عين هاله خميس نصار، محمود درويش حلقة وسط بين مقاومته ومقاومة الربيع العربي لأن الربيع العربي هو عصر جديد تحدث عنه محمود درويش عام ١٩٩٣ في قصيدته "لماذا تركت الحصان وحيدا؟ بأنشودة "هل هناك نبي جديد لهذا العصر الجديد؟. ترى هاله خميس نصار أن قصائد مقاومته تبلورت خلال ١٩٦٠–١٩٩٠. على الرغم من ذلك، لها صلة وثيقة بمن خرجوا على شوارع القاهرة والمدن العربية الأخرى عقب انتفاضة الربيع العربي. في رأيها، تجاوز شعر مقاومته كل حدود الزمان والمكان بإلهام المواطنين من العالم العربي على مواصلة مسيرة كفاحهم من أجل الديمقراطية والحرية من قيود الظلم والطغيان.

في الآونة السابقة، كثر الحديث عن شعر مقاومته. وأما البحث عن اتجاهات النقد البيئ من شعره فهو قلما يوجد. فمن المأمول أن يكون هذا البحث بعدا جديدا من اتجاهات الأدب العربي المعاصر.

يتضمن النقد البيئ كالمعتاد مجموعة من المفاهيم.. وفيما يتعلق بما يتطرق إليه هذا المقال فهي ثلاثة: الترابط، مركزية إيكولوجية ومقاومة بيئية. وكل ذلك يتضح كل الوضوح في شعر محمود درويش.

الإطار النظري

منذ أواخر السبعينات، انتشرت ظاهرة النقد البيئوي في النص الأدبي ولاتزال تخطو خطوة حثيثة نحو الأمام مركزة على دراسة العلاقة بين الإنسان والطبيعة ومستمدة أصولها من الطبيعة ذات التوجهات المتخصصة. يبحث النقد البيئ مكانة البيئة أو الطبيعة أو المكان أو الأرض داخل الإبداع الأدبي والفني بغية رصد رؤى الكتاب والمبدعين والمثقفين تجاه البيئة.

النقد البيئي هو مصطلح جديد تداوله ويليام روكيرت لأول مرة و نشره غلين لوف وتشيرلي غلوتفيلي و هارولد فروم في كل حدب وصوب من العالم لتوعية النقاد الآخرين تجاهه. من أهمهم جريغوري جرارد بحيث يلقي كتابه الإنجليزي (النقد البيئ) الضوء على حركات الطبيعة. من بينها التلوث الذي انتشر عالميا، برا، بحرا وجوا. ترجع جذو ر النقد البيئ إلى المجالين الآخرين. وهما نظرة إيكولوجية وفلسفلة بيئية لهما ارتباط مباشر مع الأدب تحت مظلة النقد البيئ. تعرف هذه المفاهيم بالترابط والمركزية الإيكولوجية والمقاومة البيئية.

حركة الترابط

يعتمد النقد البيئ على ثلاث مبادئ جوهرية . من أهمها حركة ترابطية تهتم بدراسة العلاقة بين الإنسان والطبيعة كما عرف عالمان يدعيان تشيرلي غلوتفيلي وهارولد فروم بأن "النقد البيئ يتناول موضوع الترابط بين الطبيعة والثقافة". لذا، سيكون هذا المفهوم أداة تحليلية من حركة التفاعلات بين الإنسان والبيئة والعلاقة الموجودة بينهما في النصوص الأدبية. في سياق هذه الدراسة، سيتم استخدامه لتحليل الارتباط العضوي بين الشاعر وطبيعته.

مركزية إيكولوجية

المركزية الإيكولوجية هي فكرة أصلت جذورها في عمق الطبيعة للتعبير عن القيم البيئية. وفقا لاستراتجية تستلزم بمراقبة الأعمال والنتائج (Rowe) إن الجدال الإيكولوجي يقوم أساسه على مدى الاعتقاد بأن المحيط الحيوي بكامله يفوق الإنسان قدرا وقيمة ويترتب على ذلك: أكثر شمولا، أكثر تعقيدا، أكثر انسجاما، أكثر إبداعا، أكثر جمالا، أكثر غموضا وأكثر قدما من الزمن. نظرا لانطلاق مفهوم النقد البيئ من النظرة الإيكولوجية إلى الأفق الأدبي استعارت هذه الدراسة مفهوم المركزية الإيكولوجية لتحليل مدى استخدام الطبيعة على لسان الشاعر كقوة مركزية لمقاومة أرباب السياسة الإسرائيلية.

مقاومة خضراء

المقاومة الخضراء هي معنى ينبثق عما يهتم بدراسات البيئة على إثر عدم تأثير النشاط البيئ النموذجي على النص الأدبي و يعتمد بشكل كبير على ما يستمد من الفلسفة الإيكولوجية المعاصرة. من جانب، يؤكد معنى المقاومة على اعتماد كل واحد من النظم البيئية و الجو الحيوي على الآخر. فمن آخر، إنه

يعترف بقيمة أشكال الحياة الأخرى وصفات العالم الطبيعي بصرف النظر عما ينفع الإنسان. من هذه الناحية، سيكون هذا المعنى بمثابة تحليل التكامل والتلاحم بين الشاعر والطبيعة.

هذه هي ثلاث مفاهيم محورية عما اخترته لهذه الدراسة بعناوين: عاشق من فلسطين، يوميات جرح فلسطيني وشجرة المزامير. وكل ذلك يعتز بأقدار طبيعية وصفها الشاعر بعبارة مطولة ويخص بدراسة علاقة وثيقة بين الرجل المستعمر والأرض المحتلة.

التحليل

حركة الترابط

تغلب حركة الترابط بين الشعب الفلسطيني وطبيعته على ما اخترته من شعره بصفة خاصة كما نجدها في كامل القصيدة "عاشق من فلسطين" يقترح عنوانها بحبيب يحب وطنه "فلسطين" حبا قاسيا ويحظى بعلاقة حميمة معه كما يتلذذ بها القارئ فيما يلي:

عيونك شوكة في القلب

توجعني.. وأعبدها

وأحميها من الريح

وأغمدها وراء الليل والأوجاع.. أغمدها

فيشعل جرحها ضوء المصابيح

ويحمل حاضري غدها[٩]

ولعل الشاعر والأرض ينخرطان معا في السلك الفني "بأنا مرة كنا وراء الباب.. إثنين!!" وضمير الجمع "كنا" لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

٩ درويش، محمود، ديوان الأعمال الأولى، ص ١٥٣

نرى في قصيدته الثانية "يوميات جرح فلسطيني" أن حركة الترابط بين الشاعر والطبيعة تتميز بمعنى عاطفي يتبادله الجانبان في " نحن في لحم بلادي". يمثل هذا التصور نوعا من الارتباط العضوي بين الشعب ووطنه و يثير حدة الألم الذي يحسه الشاعر عند نزع اللحم من العظم. في نفس السياق، يملأ " إنني العاشق والأرض الحبيبة" قلب الشاعر بوجدان عاطفي و دواعي الحب المدفوع بمقاومة المستعمرين ولا يعبر عن الجو الرومانسي كما يشير إليه قوله "نحن في أحشائها ملح وماء" تحمي عنه الطبيعة وتوفر له القيم الأساسية الحياتية كما يقول الشاعر:

هذه الأرض التي تمتص جلد الشهداء

و تعد الأرض بقمح و كواكب.١٠

يأتي ذلك في سياق مقاومة الاستعمار عندما تمتص الأرض جلد الشهداء وتعد بقمح وكواكب بمن مازالو على قيد الحياة مع الغذاء والضوء.

في القصيدة الثالثة " شجرة المزامير" يتفاعل الشاعر بشكل وثيق مع الطبيعة في البيت التالي:

يوم كانت كلماتي

تربة...

كنت صديقا للسنابل

يوم كانت كلماتي

غضبا...

كنت صديقا للسلاسل

يوم كانت كلماتي

حجرا...

١٠ نفس المصدر.

كنت صديقا للجداول ١١

في هذه الأبيات يتمتع الشاعر بعلاقة ودية مع بيئة ترافقه دوما و يتناغم معها في كلماته "كنت صديقا للسنابل" " كنت صديقا للسلاسل" و"كنت صديقا للجداول" يدل عنوانها على امتزاج الشاعر وقوة طبيعته معا كما هو يتجسد في الأرض، القمح، الحجر والجداول.

مركزية إيكولوجية

يذكر البروفيسور بجامعة ماليزية رفيتشاندرن فينغاسوامي أن " التحليل المجازي يفتح لنا نافذة على آراء الكاتب وأفكاره". على نفس المنوال، يوحي التعبير المجازي في قصائد درويش أن الطبيعة هي قوة مركزية وراء تدفق آراءه و ترسيم صوره ورموزه وركيزة الكفاح المسلح وسلاح العنف الاستعماري. وأما إخترته من ديوانه فهو عجلة مركزية تسير مع حركتين: حركة انسانية وحركة طبيعية مظاهرها محورية. ترتكز "عاشق من فلسطين" على الجو البيئ لتمثيل الصور والرموز رمزا لمقاومته. في هذه القصيدة، تتحول الأرض المحتلة إلى وتيرة الحب الذي يدعو الشاعر إلى مقاومة محتلها من خلال الأزهار والطيور والحيوانات والماء والأرياح والعواصف والأشجار كما نجده فيما يلي:

عيونك شوكة في القلب

كلامك.. كان أغنية

رأيتك أمس في الميناء

رأيتك في خوابي الماء والقمح

أنت الصوت في شفتي

أنت الماء وأنت النار! فلسطينية الميلاد والموت.١٢

١١ درويش، محمود، أحبك أو لا أحبك، ديوانه، المجلد الثاني، ص ٥
١٢ درويش، محمود، ديوان الأعمال الأولى، ص ١٥٥

هذه الصور المتجذرة في الجو الفلسطيني تتوقف طويلا أمام أحوال العاشق المعذب لرفع حدة ألم أبناء الشعب العربي باستعمار وطنه. لا يخاطب الشاعر هنا أرضه بصيغة الجمع "أنت" و"ك" فحسب بل يرسم لنا تصويرا طبيعيا يدفع حركة مقاومته نحو الأمام.

في القصيدة الثانية "يوميات جرح فلسطيني" تبدو الطبيعة الفلسطينية جسما جريحا لا ينفك منه الشاعر والشعب فحسب بل إنهما يرتبطان كل الارتباط بما يستولد جرحهم وإنكسارهم ركيزة لمقاومتهم ودفاعا عن الأرض المقدسة كما يتغنى به المقطع التالي:

وعلى أهدابنا عشب الجليل

هذه الأرض التي تمتص جلد الشهداء

وتعد الصيف بقمح وكواكب١٣

إنما ينصهر في هذا البيت يشعل شرارة المقاومة الفلسطينية في قلب الشاعر والشعب العربي.

يوم كانت كلماتي..

تربة...

كنت صديقا للسنابل

يوم كانت كلماتي

حجرا...

كنت صديقا للجداول١٤

في هذه السطور لا يلجأ الشاعر إلى الطبيعة من أجل ترسيخ جذور القيم الأساسية في نسيج دماغ الشعب فحسب بل يركن إلى أركانها كمصدر الوحي والإلهام بالنسبة له. في هذا المقطع، تلعب الطبيعة

١٣ درويش، محمود/ ، جرحيات يوم فلسطيني، ديوان الأعمال الأولى، ص ٣٨٥

١٤ درويش، محمود، شجرة مزامير، أحبك أو لا أحبك، ديوان الأعمال الثانية، ص ٥

دورا جوهريا في مجال توثيق أواصر الصداقة مع مظاهرها لدعم معركة كفاحية ساعية إلى تحرير الوطن المسلوب من سلاسل الاستعمار.

مقاومة خضراء

المقاومة الخضراء هي حركة يسود تيارها على مدار"عاشق من فلسطين"، "يوميات جرح فلسطيني" و"شجرة المزامير" خاصة حيث يواجه الشاعر عدوه. في ظل الطبيعة. في القصيدة الأولى، إنه قاوم عدوه بثلاث طرق:

مقاومة المستعمر من خلال الحيوانات

تمثلت مثل هذه المقاومة في البيت الآتي:

وما جزت ضفائرها

وحوش الباب والغاب

ولكنني أنا المنفي خلف السور والباب١٥

يهدد الشاعر المستعمرين من خلال هذه الكلمات بشن حملة نضالية مناهضة لهم من خلال الطيور والحيوانات الأخرى.

صارت العصافير

درب الرجوع.. لغش انتظارك١٦

هذا العصفور الصغير الذي يغادر مكانه في فلسطين لوقت قليل ويرجع إليه مرة أخرى يرمز إلى مقاومة الشعب الفلسطيني المنفي وعودته إلى وطنه كطائر صغير يخرج من بيته صباحا ويعود إليه مساء.

مقاومة المستعمر من خلال النباتات

١٥ درويش/ محمود، عاشق من فلسطين، ديوان الأعمال الأولى، ص ٢٧٠

١٦ نفس المصدر، ص ٢٧٥

كيف تسير حركة المقاومة من خلال الأشجار والأزهار والبساتين وغيرها؟ ينسكب في السطر الآتي:

وأنت كنخلة في الذهن

ماانكسرت لعاصفة وحطاب١٧

ترمز أغصان "النخلة" إلى قوة مقاومة الشاعر كما تلمح "العاصفة" إلى أرباب الاستعمار الصهيوني.

وأنت حديقتي العذراء... ما دامت أغانينا

سوف حين نشرعها

وأنت وفية.. كالقمح.. ما دامت أغانينا١٨

ترسخ صورة "العديقة العذراء" و "أنت وفية.. كالقمح" جذور ثقة الطبيعة الفلسطينية على دوامها كحديقة عذراء لاترحب أبدا بضيف استعماري في ربوعها وتوطد أركان المقاومة الفلسطينية المستمرة عبر توفير موارد غذائية للشعب لكي يواصلوا مشوار كفاحهم بقوة ونشاط.

مقاومة المستعر من خلال قوات الطبيعة الأخرى

رأيتك في المواقد... والشوارع

في الزرائب... في دم الشمس

رأيتك في أغاني اليتم والبؤس

رأيتك ملء ملح البحر والرمل١٩

في هذا المقطع يرسم لنا الشاعر صورا رائعة مشحونة بما يحرضه على مقاومة القوات الطاغية وبما يحسه كل رجل فلسطيني من جراء مناورات استعمارية تعرضت لها أرضه وشعبه طول حياته.

١٧ درويش، محمود، عاشق من فلسطين، ديوان الأعمال الأولى، المجلد الأول، ص ٢٥٩
١٨ نفس المصدر.
١٩ درويش، محمود، عاشق من فلسطين، الأعمال الأولى، المجلد الأول، ص ٩٠

مقاومة المستعمر من خلال البيئة الإنسانية

ينطلق خيال الشاعر إلى عالم من الشعر الصافي مما يحيط به من كل جانب ومما يصنعه الإنسان أمثال الأبواب، والشباك والإسمنت والأحجار كما نجد عنده في المقطع الآتي:

رأيتك في جبال الشوك

راعية بلا أغنام

مطاردة، وفي الأطلال

وكنت حديقتي، وأنا غريب الدار

يدق الباب يا قلبي...

على قلبي

يقوم الباب والشباك والإسمنت والأحجار! ٢٠

يؤكد جموح الخيال مثل "جبال الشوك" "راعية بلا أغنام" و"الأطلال" على عقم وطن الشاعر من جراء تداعيات النظام القمعي على أرضه وكذلك توحي الأبواب والإسمنت والأحجار إليه بإرهاف إحساسه بأن الطبيعة تهدد بمقاومة تهز العالم العربي بأسره عندما يستشاط الشعب المستعمر غضبا على المستغلين.

في القصيدة الثالثة، يصف الشاعر معركة الشعب الفلسطيني و قسوة الظلم والاضطهاد والتمرد الإسرائيلي على أبناء شعبه بتجسيم أرضه كجسم جريح لايتجزأ منه الشاعر على مدار حياته. من جانب، يرفع مثل هذا الارتباط العضوي نبرة الآلام، فمن آخر، إنه يدفع حركة المقاومة نحو الأمام. يمكن اقتفاء آثار ها في مطلع القصيدة.

٢٠ نفس المصدر، ص ٩٠-٨٩

وعلى أهدابنا عشب الجليل

لاتقولي! ليتنا نركض كالنهر إليها

لاتقولي!

نحن في لحم بلادي... وهي فينا. ٢١

تتحرك هذه الصور في ظل الطبيعية الفلسطينية مؤكدة على توحيد الصف العربي وتحصين قلعة مقاومته كما يعلن الشاعر بصوت صارخ:

وعلى أحضانها.. جرح.. يحارب ٢٢

(نفس المصدر، ص ٣٨٩) خرجت معاني المركزية الإيكولوجية وحركة الترابط والمقاومة الخضراء من أحضان الطبيعة الفلسطينية فمعناها الطبيعي يمثل جسما جريحا لايتجزء منه الشعب والشاعر لمقاومة المهاجمين عليهم بما تكونوا من أجزاء الطبيعة.

أخيرا، يمكن القول إن محمود درويش لجأ إلى مفردات الطبيعة رمزا للحب والسلام والمقاومة بوصفها عنصرا مثاليا يساعد الشعب العربي في مكافحة القمع الاستعماري ولا تنتمي قواته الخاصة إلى المكان الغربي أو الاستعماري.

كلمة أخيرة

حاولت هذه الدراسة لتحليل كافة أنواع المقاومة الخضراء على وجه التحديد في ثلاث قصائد مختارة كرسها أب المقاومة العربية محموددرويش لأبناء الشعب العربي متسللا إلى عمق الطبيعة والبيئة الفلسطينية. في الواقع، كما وجدت أن الطبيعة والشعب لاينفصلان عنه على مدار مشوار شعره تتواجد علاقة تكافلية بينهما بصدد مقاومة المستعمر. تقول دراسة مختصة بهذا المجال إن فقدان الأرض يتسبب إلى شعر مقاومة الظلم والطغيان. وأما دراستي في هذا السياق فهي مرتكزة على مكونات الطبيعة.

٢١ درويش، محمود، يوميات جرح فلسطيني، ديوانه، المجلد الأول، ص ٣٨٣

٢٢ نفس المصدر، ص ٣٨٩

تترتب هذه الدراسة على أن مجال النقد البيئ الذي لايزال يمر بمرحلة طفولته في العالم العربي هو طريق حيوي إلى تحليل شعر المقاومة العربي. إضافة إلى ذلك، إنه يتحدى المجالات الأخرى بالنسبة لانتهاج طريقة متعددة التخصصات لحل قضايا حاسمة تواجه حياتنا وبيئتنا. يقف كل شعب عربي جنبا إلى جنب مع الأدب في العالم من أجل الحفاظ على البيئة ومستودعاتها. على نفس الغرار، يجثم مستقبل الشعر العربي الحديث وما بعد الحداثة برطوبة التراب. فيمكن القول إن أية محاولة سواء كانت هي رسمية أو غير رسمية وأي جهد واعي أم غير واعي للحفاظ على البيئة هي خطوة نحو النقد البيئ العربي ويجب أن تكون تحديا أساسيا بالنسبة لرجال الفن والأدب من العالم العربي في القرن الواحد العشرين.

المصادر والمراجع (الكتب العربية)

١. محمود درويش، ديوان الأعمال الأولى، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، لبنان، ١٩٧١

٢. محمود درويش، ديوان الأعمال الثانية، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، لبنان، ١٩٩٤

٣. رجاء النقاش، محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة، مؤسسة دار الهلال، ١٩٧١

٤. غسان كنفاني، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة: ١٩٤٨-١٩٦٦، مؤسسة البحث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٧

٥. مهي جرجور، محمود درويش: قراءة جديدة في شعره، دار العودة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩

٦. صلاح فضل، محمود درويش: حالة شعرية، كتاب دبئ الثقافية، سبتمبر ٢٠٠٩

٧. ميشال سعادة، محمود درويش: عصي على النسيان، رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، يوليو، ٢٠٠٩

٨. مهند عبد الحميد، محمود درويش: سنكون يوما ما نريد، السلطة الوطنية الفلسطينية، وزارة الثقافة، ديسمبر، ٢٠٠٦

٩. عمر أحمد ريحات، الأثر التوراتي في شعر محمود درويش، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٦

١٠. هكذا تكلم محمود درويش في ذكرى رحيله، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ٢٠٠٩

English Books:

1. Harlow, Barbara, (1987), *Resistance Literature*< New York
2. Khamis, Halla Nassar, Rahman, Najat, , Mahmoud Darwish: Exile's Poet (Critical Essays) , Olive Branch Press, 2008
3. Gurrard, Grey, (2004), *Eco-criticism,* New York and London, Routledge
4. Glotfelty, Cheryll and Fromm, Harold (eds), (1996), *The Eco-criticism Reader: Landmarks in Literary Ecology*, Athens and London, University of Georgia
5. Ruckert, William, (1978), *Literature and Ecology: An Experiment in Eco-criticism*

Journals/E-Journals:

1. Vanasco, Jeannie, (2008), *The Poet of Resistance: Mahmoud Darwish,*
2. Manqoush, Riyad: Ruzy Suliza Hashim & Noraini Md. Yusof, (2011), The Use of Historical Allusion in Recent American and Arab Fiction,Gema, *Online Journal of Language Studies* 11 (1): p. 57-68
3. Nassar, Halla, (2011), Darwish and the need for a new poetry of resistance for the Arab Spring, Near East Quarterly, Issue IV, May 2011 p. 1-7
4. Metaphors as Ideological Constructs for Identity in Malaysian Short Stories, 3L:
The *Southeast Asian Journal of English Language Studies* 17 (Special Issue): p. 99-107
5. Yahya Hassan & Nortiah Omar, (2011), Narrating the Nation and its Other: The Emergence of Palestine in the Postcolonial Arabic Novel 3L: *The Southeast Asian Journal of English Language Studies,* 17 (Special Issue): p. 109-119